جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

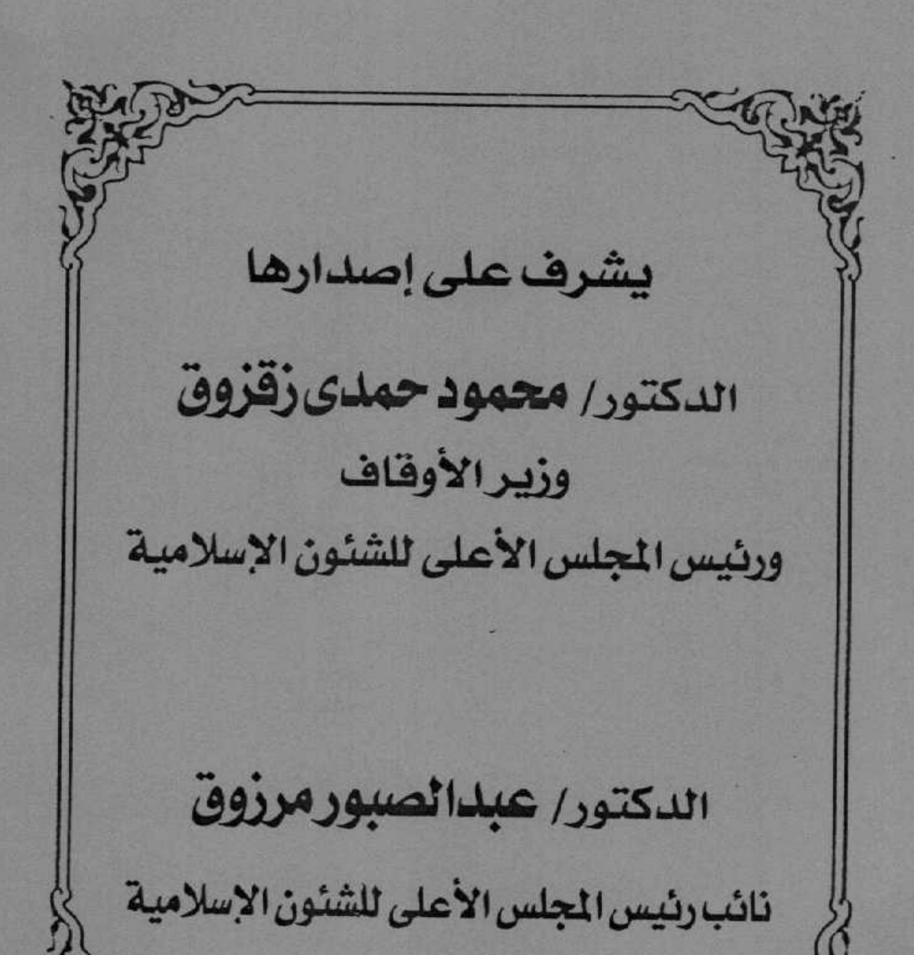
رؤى إسلامية فى التنمية التقنية المستقلة

أ.د. سيد دسوقى

العدد: ١٠٣

القسم الأول

القاهرة
المحرم ١٤٢٥هـ - مارس ٢٠٠٤م



يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

هذه فصول كتبتها فى أوقات متفرقة عن التنمية التقنية التى نعنـــى بها هذا الجهد البشرى الذى يحقق قدرات ثلاثا:

- القدرة على تلبية حاجات العمران البشرى من طعـــام وشـــراب ومسكن وملبس وما يستوعبه ذلك من بنية تحتية.
- **القدرة على الدفاع عن المكتسبات والثروات الوطنية.**
- **القدرة على تطوير الذات تقنيًا للملاءمة مع الظـــروف البينيـــة ومع الأوضاع العالمية للتقنية وحتى لا نصبح منطقة فـــراغ تتدفـــق من خلالها البضائع الخارجية المنافسة.**

ولقد تبين لنا ونحن نتدبر فى هذه الأمور أننا أمام صـــراع النظـــم التنموية فى العالم ولسنا أمام صراع حضارات كمـــا يـــردد بعـــض الاستعماريين .

فهناك تنمية قهرية تفرض علينا فرضا ولا يتـــاح لنـــا أن نطـــور تنميتنا الذاتية، وهم يزينون وفود هذه التنمية القهريـــة بمشـــروعات

ثقافية تبدأ بتعريفات منحازة لمعنى النجاح تربطنا ربطا بعوالم الأشياء التى أنتجتها هذه التنمية القهرية، وهذه التنمية القهرية تفرض علينا احتياجات وهمية غير متناغمة مع إمكانياتنا المحلية عن طريق جيش العملاء الذين يبحثون عن الثراء السريع الرخيص وفي غياب استراتيجية حاكمة للدولة التي نظن أن التحول لاقتصاديات السوق يعطيها فرصة للانخلاع من واجباتها المختلفة، كل ذلك في ظل مناخ من ضعف الهمم وفساد الذمم عند العامة والخاصة.

ونحن ندرك أن التنمية التقنية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمنظومة القيم السائدة في المجتمع وبمجمل الأوضاع الاجتماعية والسياسية، ومن أجل ذلك قامت جامعات كثيرة فى المغرب بإنشاء برامج فيها للنظر في التفاعل بين التقنية والقيم والمجتمع، وهو أمر دعونا إليه من قبل وما زلنا ندعو له.

كتبت مرة مقالا تحت عنوان "الثموديون الجدد.. عاقرو ناقة التنمية" قلت فيه: "ألم تر إلى هذا الجيش من ممثلى الشركات الأجنبية من كل جنس ومن كل لدن؟ وهل رأيتهم وهم يصدونك عن توطين الصناعة ويصرفونك إلى الخارج بكل ما أوتوا من براعة البيان وزخرف القول ؟ وهل رأيتهم وهم ينشئون فى وطنك مراكز للبحوث وادرسك ، كيف تأكل وكيف تشرب وكيف تلبس ثم ينقلون ذلك إلى

مصانع بلادهم ثم يغزونك غزوا حتى في الجلاليب البلديـــة وســجاد الصلاة ؟

ألم تر كيف صنعوا لك سبحة أوتوماتيكية تسبح بها الله؟

هم يحاصرونك من أدنى التكنولوجيا إلى أعلاها حتى يصرفــوك عن مبدأ "مما صنعت يداك " إلى " مما صنعت أيديهم" هذا الجيش لــه فى كل واد عميل يسهل له الأمر، ويزينه لنا، حتى لو لم يكـــن فـــى أذهاننا ما يريدون؟ ومن التزين تسهيل الإقراض عن طريق بنوكـــهم التي لم تعد تكتفي بدور اقتصادى بل تجاوزت ذلـــك الآن وأقحمـــت نفسها في الاجتماع والسياسة والفن والأدب.

وبعد، تذكرت كل هذا وأنا أقــرأ ذات مســاء قــول الله تعــالى : ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُــولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْــهِمْ رَبُّــهُمْ بِذَنبِــهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا**﴾ (الشمس : ١١ــ١٥) .

تبدأ الآيات بتقرير أصل الداء: "**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا**" وكـــل أمــة هالكة تكذب بطريقتها، وثمود كذبـــت ربـــها ورســـولها بالطغيـــان، والطغيان يصد الشرفاء والأتقياء عن الســـاحة ويبعـــث المجرميـــن والأشقياء فينبعثون . الطاغية بطبيعته لا يحب الأتقيـــاء العلمـــاء أن يكونوا حوله، إنما يحب من يزين له طغيانه ويمتدح عبقريتـــه آنـــاء

الليل و أطراف النهار.. وهذا هو لب الفساد فى عمليـــة الطغيــان.. ليس فقط في طبيعتها الكريهة، ولكن لأنها طاردة الكفاءات المخلصــة جالبة وباعثة للأوغاد واللصـــوص والخونـــة، فينبعثــون كـــالفراش المبثوث ويحولون مجتمعاتهم إلى عهن منفوش .

هذا الجيش المنبعث من الأشقياء بين أيديهم ناقة.. وما الناقة؟

أليست هى وسيلة التنمية الأساسية التى تملكها ثمود ؟

تحملهم من مكان إلى مكان، وتعطيهم الألبان، وعندما تعجز عـــن ذلك يأكلون لحمها ولكن الأشقياء يريدون العاجلة ويذرون الآجلـــة.. يريدون لحمها الآن ولا يريدون أن يصـــبروا علـــى لأواء التنميـــة. ينصحهم رسولهم صالح: ﴿ **قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِـرْبٌ وَلَكُـمْ شِـرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ أي خططوا نظـــامكم التنمـــوي بحيـــث تخصصـــون جزءا " للعاجل وتستبقون جزءاً " بتدخل.. ومن أجل مســـتقبلكم أنتـــم ومستقبل أولادكم، ولكنهم لا يريدون أن ينفقوا على التنمية ويصـــبروا أن يقتلوها ويمنعوا شربها.. والشرب هو الذي يبقـــي الحيـــاة ومنـــع الشرب يقتلها، ولكن الثموديين القدامى أصروا على موقفهم ومنعـــوا الناقة شربها.. أي منعوا التنمية نصيبها، فدمدم عليهم ربـــهم بذنبـــهم فسواها .

وسبأ كذلك عندما أهملوا صيانة سدهم، وقد كـــان هـــذا مصـــدر تنميتهم فشردوا فى العالمين وباعد ربهم بينهم وبين أسفارهم .

وكل أمة تهمل وسائل تنميتها سوف يدمدم عليـــهم ربـــهم بذنبـــهم ويمحوهم، ونقول لجيش العملاء الذين يحولون بيننا وبين النـــــهوض بنظامنا التنموى ويتفننون فى إغوائنا لنخضع للتنمية القهرية العدوة.

أيها الثموديون الجدد.. عاقرو ناقة التنمية ، ألا بعدا لكم كما بعـدت ثمود .

الفصل الأول

نظرية تنموية إسلامية

نظرية تنموية إسلامية

للإسلام رؤية تنموية تنبعث من فلسفته في العلاقة بين الإنسان والكون ومالكهما رب العالمين. وهذه الرؤية تحتاج إلى مجاهدة لاستخراجها من خلال الدرر القيمية المكنونة فى تلافيف الكتاب العزيز. وفى تاريخنا الحضاري اكتشف المسلمون بعضها وعاشوا بها، وما زالت كنوزها تحتاج إلى جهود العلماء الأتقياء لينفضوا عنها ما تراكم حولها من جهالات التصورات وكسل الطالحين. كنت أتحدث حول هذا المعنى فى محاضرة فى القاهرة منذ عشر سنوات، فقام أحد عمداء الكليات الأزهرية مستغربًا أنني أتحدث عن قيم ما زالت مكنونة فى كتاب الله لم يستخرجها المسلمون بعد. وقال بأن الأمة قد فرغت من معرفة كل القيم وليست هناك قيم مجهولة. قلت: وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿ **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**﴾ (**الكهف** : ١٠٩) .. وما هي كلمات الله إلا هذه القيم التي نكتشفها كل يوم لنصنع بها حياتنا ونصوغ منها أعمالنا.

وضربت لـــه مثـلا مـــن ســـورة الكـــهف فـــي رحلـــة العبـــد الصالح مع موسى عليه السلام، وتفسير الرجل الصالح لما قام به من إصلاح سور في قرية أبى أهلها أن يضيفوهمـــا ، قـــال : ﴿ وأمـــا **الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكـــان تحتـــه كـــنزٌ لـــهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهمـــا رحمةً من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مـــا لـــم تســـطع** عليه صـــبراً﴾ (الكـــهف : ٨٢) . قلـــت إن فـــي هـــذه الآيـــات قيمة اقتصادية اجتماعية مكنونة نحن فى أشد الحاجـــة إليـــها هـــذه الأيام. هذه القيمة الاقتصادية تتحدث عن الركـــاز تحـــت الأرض ، والقاعدة أننا فى حالة الضعف نستره مـــن أعيـــن البغـــاة ، وذلـــك حتى تبلغ الأمة رشدها وتملك من وسائل القوة ما تستطيع به حمايـــة ركازها تحت أرضها.

وعلى كـــل حـــال لقـــد ظلـــت مهمـــة البحـــث عـــن عنـــاصر المنظومة التنموية في تراثنا الإسلامى هي أحـــد همومـــي الفكريـــة لزمن طويل ، وفي هذه الورقـــة ســـوف ألخـــص تصـــوراً أوليًّـــا لنظرية تنموية إسلامية .. أنا واثق أنها تحتاج لاســـتكمالها لطاقـــات علمية ولجهود جبارة، وحسبي أنني وضعت لبنة صغـــيرة فـــي أول البناء .

ولفهم المنظومة التنموية سنخوض فـــى ســبعة عناصر:

١ - أهداف التنمية فى الإسلام .

٢ - عناصر التنمية فى الإسلام .

٣ - ضوابط التنمية فى الإسلام .

٤ - طيف التنمية فى الإسلام .

٥ - آليات التنمية فى الإسلام .

٦ - الطاقة البشرية فى منظومة التنمية فى الإسلام .

٧ - صراع الأنساق التنموية أم صراع الحضارات ؟

أهداف التنمية فى الإسلام

يقول الله تعالى فى محكم تنزيله: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش : ١ــ٤) .

الإطعام من جوع والأمن من خوف هما العنصران الأساسيان فى أهداف التنمية فى الإسلام . والإطعام ليس من شبع ولكن من جوع ، والأمن ليس عن غفلة ولكن أمن من خوف. وكأن الأصل فى حياة الإنسان أن يتخفف من ثقل الطين فلا يأكل إلا من جوع ، وكذلك ينبغي أن يظل الإنسان فى حالة انتباه وخوف فيأتيه الأمن من ربه. وحالتا "الجوع والخوف" هما المقابلتان لحالتي "الترف والغفلة". والإسلام يكره "الترف والغفلة"، وأصل الداء فى كل مجتمع هو هذا المزدوج النكد "الترف والغفلة" ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٦) .

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ

عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص : ١٥) .

فالترف من طبيعته أن يؤدى إلى الفسق لا محالة، كذلك الغفلة تؤدى إلى ظهور العصبيات المريضة وتجعل الناس شيعًا وأحزابًا. وكلاهما -الترف والغفلة- يؤدى إلى هلاك الحضارات وزوال المجتمعات .

فانظر -رحمك الله- إلى هذا الإعجاز الخالد فى تعريف أهداف التنمية في الإسلام ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ .
فكل تنمية تؤدى إلى ترف وإلى غفلة هى حرام شرعًا. ورسول الله ﷺ يقول: [**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع**]. وكان هو وصحابته فى حذر دائم وخوف دائم رغم الثقة المفرطة في الله. وعندما أعجبتهم كثرتهم يوم حنين كانت قد تسللت إليهم الغفلة فنزل قول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كثرتكم...﴾ (التوبة : ٢٥) .

وعلى مستوى الفرد والجماعة والأمة يجب أن يظل الخوف هو الحال الدائم فى النفوس ، والله وحده يعدنا أنه سيبدل خوفنا أمنا.

نخاف على أنفسنا من الشياطين، ونخاف على بلادنا من المستكبرين، ونخاف على أنفسنا الأهواء الغلابة، ونخاف على أبنائنا من النفاثين في العقد في وسائل إعلامنا...[1].

وهذا الخوف يستدعى جهاداً، كما يستدعى الجوع مشقة وعسرًا.

والله تبارك وتعالى وعدنا أنه سيخلق مع العسر يسرًا .

استوقفني بيت من الشعر وأنا طالب في الجامعة في منتصف الخمسينيات يقول :

رَدِّدِى في الأسر يسرا ∴ إن بعد العسر يسرا

قلت في نفسى لماذا استبدل الشاعر "مع" بـ "بعد". وكنت أيامها أدرس هندسة الطيران. وفي مادة الديناميكا الهوائية والتي نبحث فيها عن القوى المتولدة من سريان الهواء حول الأجسام: قوى معوقة وقوى رافعة. لاحظت أن العلماء عندما أهملوا لُزوجة الهواء وهي السبب وراء قوى الإعاقة- لم يجدوا بمعادلاتهم ما ينشئ لهم قوى الرفع وهى القوى المطلوبة. وعندما وضعوا لُزوجة الهواء في

---

(١) والخوف هو عدم الاطمئنان إلى الدنيا وعدم الركون إليها.. ومن الدنيا عمل الإنسان نفسه. والمؤمن يتوجه إلى الله دائماً طالباً الطمأنينة من لدنه مرتكناً عليه وحده. والله تبارك وتعالي يقول: ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً** ﴾ وهو القائل ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ (الرعد : ٢٨) .

معادلاتهم ظهرت قوة الرفع مع قوة الإعاقة، وأصبح هَمُّ العلماء كيف يشكلون الأجسام من أجل تعظيم الرفع وتقليل الإعاقة.. هما معًا دائمًا الرفع والإعاقة أو اليسر والعسر.. هكذا شاء الله في المادة والإنسان ، وليس هناك يسر محض ولا عسر محض وإنما ينشآن معًا، ومهمة الإنسان بفضل الله وبرحمته وبما وهبه من علم- أن يقلل الإعاقة ويعظم الرفع. وربما كانت هذه الملاحظة التي وهبنيها الله وأنا شاب صغير جعلتني شديد الحذر كثير التوقف عند كل لفظ من ألفاظ القرآن. من كان يظن أن "إن مع العسر يسرًا" قانون مادى وقانون حياتي.. أى قانون يحكم المادة ويحكم الإنسان والكون المحيط.. هذا القانون العام ذو تطبيق تنموى ترجمته الآية : ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ .

ومتى أُطْعِمَ الإنسان من جوع وأمِن من خوف فإنه ينطلق فى الحياة ليملأها خيرًا وبركة ونماء.. تمامًا كمثل النحل فى سورة النحل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل : ٦٨، ٦٩) .. تَعلَّم النحلُ كيف يسكن

ويأكل ويسلك سبل ربه ذللاً.. لا خوف ولا جوع.. والنتيجة شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس .

وقبل أن ننهى الملاحظات من "الترف والغفلة" نشير إلى أن الترف هو الحالة التى تنشأ عن التكاثر، والتكاثر فى لغة القرآن هو (كما يصفه أسد فى ترجمته) الأطماع من أجل المزيد (greedily striving for am inueare)، المزيد من المنافع سواء كانت حسية أو غير حسية، حقيقية أو وهمية ، وهى تعبر أيضًا عن انشغال الإنسان الكامل بمزيد من الراحة ومزيد من الأشياء المادية ومزيد من القوة فوق الآخرين وفوق الطبيعة ومزيد من التقدم التكنولوجي.. كل ذلك من غير أن يضع الإنسان لنفسه أى اعتبارات أخلاقية أو بيئية.. المهم هو المزيد والمزيد والمزيد ، وكلما ازداد قوة ومادة أعرض ونأى بجانبه بعيدًا عن أي قيم حاكمة.. إن التكاثر يحمل فى طبيعته جرثومة الإهمال للقيم التي تحاول أن ترشد خطى الإنسان فى الحياة ، ومع الوقت يفقد الإنسان نفسه وتفقد المجتمعات هديها ويبدأ الانهيار المعنوى ثم الانهيار المادى نفسه.

والقرآن يقسم أنه هذه الحالة هى تعبير عن الجحيم في الدنيا (لترونَّ الجحيم)، ثم إن الإنسان سوف يرى هذا الجحيم فى الآخرة (لترونَّها عين اليقين) ولسوف يسأل حينئذ عن النعيم الذي ربما يكون قد تحصل عليه من خلال عملية التكاثر هذه .

وفى كتابه الرائع خارج حدود السيطرة يصف برجسنكي مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر حالة المجتمع الأمريكي وصفا يقترب من معنى التكاثر فيقول إنه مجتمع "إباحية الوفرة"، ويعني بها حالة المجتمع الذى يسمح فيه بكل شيء ويمكن الحصول فيه على كل شيء، وهو مجتمع ضاعت فيه القيم وانصب جهد الإنسان فيه على تلبية رغباته وإرضاء شهواته .

وفي رأى برجسنكي أن هذه الحالة تنشأ من عاملين: أولهما الوفرة المادية عند قطاع من الناس، وثانيهما الشعور بعدم الامتلاك الكامل لهذه الوفرة عند القطاع الأكبر من الناس، مما يحثهم إلى التدافع فى طلب هذه الوفرة ومحاولة امتلاكها بكل السبل .

إن عالم إباحية الوفرة عالم اختلفت فيه موازين الأخلاق وموازين الخير والشر وتم استبدال موازين من صنع البشر "قانونية أو غير قانونية" بهما، وفى مثل هذا العالم تم إقصاء القيم الدينية الداخلة فى ضمير الفرد واستبدل بها قوانين وقواعد خارجية تنفذها أجهزة الشرطة والأجهزة القانونية .

ومن علل "عالم إباحية الوفرة" اختلال مفهومى "الحرية" والحيـــاة الطيبة" حيث يصبح مفهوم الحرية إطلاق العنان لشهوات الأفراد دون التقيد بالمسئوليات العامة وخير المجتمع. أما مفهوم الحيـــاة الطيبــة فيعني في مثل هذا المجتمع: طلب اللذة والمتعة الحسية عن طريـــق التكاثر؛ فالوفرة غاية في حد ذاتها .

عناصر التنمية

كل تنمية تتكون من سبعة عناصر أساسية تحدد ملامحها، وهـــى : القصد – الوظيفية – الحجم – الجمال – القدرة التعليمية والتدريبية – الامتداد الزماني – الامتداد المكانى .

القصد والاقتصاد

كل سعي في الحياة ينبغي أن يكون قاصدًا، فالله يقول :﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أى اجعل لمشيك قصدًا، والمشي في الحياة هـو السـعى فيها. أما تحديد القصد الذي ينبغي على الإنسان أن ينضبط بـه فـهو القصد الذي حدده الله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.. هو وحده الذي يحدد لنا قصد سبلنا من خلال القيم المستكنة في كتابه الكريم (انظر ترجمة محمد أسد في تأويل هذه الآية) .

ولقد قرأت في التراث أن عصفوراً اشتكي إلى ربه طفلاً قتله فقال: قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة .

والله تبارك وتعالي يذم أقواماً فيقول: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء : ١٢٨ـ١٣٠) .

والقصد والاقتصاد هما جوهر التعامل الإنساني مع البيئة المحيطة في النظرة الإسلامية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧) ، فابتغاء وجه الله وعدم الإفساد في الأرض والإحسان إلى من حولك وأخذك نصيبك من الدنيا هو القصد الذي يبتغيه الإسلام لك، ولكنك في كل هذا ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩) .

وإنه ينبغى عليك أن تقتصد ولو كنت على نهر جار، وما عال من اقتصد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . والترف ظاهرة محتقرة في القرآن الكريم وهي من أمراض الحضارات التي تعمل في النهاية على تقويض ما أنتجه الإنسان في فترات السمو الروحي والنمو العقلانى .

ولذلك ينبغى أن يخطط المجتمع المسلم لتنميته بحيث لا تؤدي بطائفة من هذا المجتمع أو بالمجتمع بأكمله إلى نزيف مهلك ، فإذا كان الخيار في تخطيط منظومتنا التنموية بين تكثيف العمل أو تكثيف الإنتاجية اخترنا تكثيف العمل ، ذلك أنه يمكن تكثيف الإنتاجية من خلال الميكنة بينما نكثف العمل من خلال جهد الناس، وفي ظروف

مجتمعاتنا حيث يستدعي تكثيف الإنتاجية رأس مال ضخم لشراء مصانع من غيرنا يصبح الخيار واضحًا لا لبس فيه، ألا وهو خيار تكثيف العمل .

ولأن الإسلام يعظم الوسطية في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا من مأكل ومشرب وملبس ومسكن بينما يعظم الاستعداد بالقوة لإرهاب أعداء الله في الأرض ، فينبغي على مخططي التنمية أن يأخذوا ذلك في الحسبان ؛ فيعيش الناس في حياتهم بتنمية البقاء متأسين بسيرة سيد خلق الله القائل "اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا" بينما كان هذا النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام يرسل البعوث ليتعلم الناس صناعة المنجنيق. من أجل ذلك ينبغي على الأمة أن تحرص على تنمية النماء أو السبق فيما يختص بأمور الدفاع، وهو عكس ما هو قائم الآن حيث يعيشون على عالم أشياء هو أحدث نتاج للمدينة الغربية بينما وسائلهم الدفاعية شبه معدومة .

إن توجيه الله للمؤمن فيما يتعلق بسعيه في الحياة ليحقق أكثر من احتياجاته الأساسية قد جاء في القرآن في آية عظيمة ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ**

فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ (الرعد : ١٧) ، فالحلية والمتاع زبد يذهب جفاء في رحلة الإنسان الكونية ، ويبقى دائمًا ما ينفع الناس في الأرض في رحلتهم الممتدة، إن الله تبارك وتعالى لا يمنع الناس أن يتزينوا بالحلي وأن يستمتعوا بالطيبات ولكنه يجمل لهم القول وينبئهم بالحقيقة الأزلية.. إن هذه الحلي وهذا المتاع زبد يذهب جفاء في رحلتهم الكونية الممتدة أبد الآبدين، والرسول لم ينه هذا الصحابي الذي رآه يطيل المكث في زخرفة داره ولكنه ابتسم ، وقال : الأمر أعجل من هذا. وعلى كل حال مطلوب من المسلم ألا يفسد بيته ولا ينضب خزائن الأرض من طاقة ابتغاء حلية أو متاع، أوليست الطاقة هي مصدر هذه النار التي يوقدون عليها ابتغاء حلية أو متاع .

الوظيفية

تعظيم الوظيفية في كل عمل تنموي من مقاصدنا الشرعية. وفي تراثنا أن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام رأى غلامًا يركب بقرة فقال: "ما لهذا خلقت " .

والمخطط التنموي في بلد كالقاهرة يقيم مصنعًا للسيارات الخاصة أم مصنعًا للحافلات؟ أيهما يخدم الناس وينفعهم في مدينة مكتظة ضيقة الطرقات؟

حتى العلم إن فقد وظيفته التنموية يصبح علمًا مكروهًا، ونحن نستعيذ بالله من علم لا ينفع.. هكذا علمنا رسولنا الكريم.

والمخطط التنموي يقارن بين البدائل التنموية المختلفة، ويحاول أن يختار ذات الوظيفية العالية، بالطبع آخذًا في الاعتبار كل العناصر الأخرى وكل الضوابط الشرعية .

الجمالية

فى التنمية الرعوية يحدثنا القرآن : ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام : ٥ـ٩) .

فالدفء والمنافع والأكل والركوب الموزون كلها مقاصد وظيفية، والجمال في هذا الخلق كله مقصد رباني مطلوب للنفس البشرية التى ينبغي علينا أن تحقق الوظيفية والجمال في كل عمل تنموي تنشئه .

الحجم الأمثل

يبذل النظام العالمي الجديد جهدا إغوائيا لإقناعنا بتبني فكره التنموي. فبينما لا يصلح لنا إداريا واقتصاديا وعلميا وتقنيا وسياسيا إلا الصناعات الصغيرة فإنه يصر على أن ننبذ كل ما نقدر عليه ونقبل على الذي لا نقدر عليه .

من كان يظن أن النظام العالمي يشارك الفلاح المصري البسيط في ربح أرضه من البطاطس. فأصبح الطفل المصري يشتري ورقة بطاطس ثلاثة أرباع ربحها يذهب إلى الخارج : للمصنع المستورد، وورق التغليف المستورد، والإضافات المجهولة المستوردة، والإدارة المستوردة، والصيانة المستوردة، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهذا النظام هو هو الذى يمنعنا عن تخطيط وإصرار من المضي فى أى تكنولوجيا متقدمة .

لكل بلد حجم أمثل للتنمية يتفق مع مجمل أحواله الراهنة من علم وتقنية وقدرات إدارية وسياسية واقتصادية. ورحم الله ذا القرنين

عندما سأله القوم : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف ٩٤ـــ٨٩) .

أي أن ذا القرنين رفض الخرج ، وأصر على أن يعلمهم فى ظل إمكانياتهم تكنولوجيا مناسبة يدرأون بها الشر عن أنفسهم .

وللاقتصادي الإنجليزي الشهير شوميكر كتاب اسمه "الصغير هو الأجمل" Small is beautiful يرفض فيه النموذج الغربى في التنمية والذي يقوم علي مؤسسات شديدة الضخامة، يرفض ذلك حتى للغرب المتقدم، وينادي بالأحجام التي لا تفسد إنسانية الإنسان وتجعله عبدًا لما صنع لا سيدًا لما ابتدع .

القدرة الذاتية على الإيلاف

تحتاج كل تنمية إلى نظام تعليمي وتدريبي مناسب. ومع التعليم والتدريب تحتاج إلى نظام إعلامي يحببها ويزينها في قلوب الناس

حتى يقبلوا على حياتهم بطمأنينة وحب. يلخص ذلك كله كلمة عظيمة في القرآن الكريم :

﴿لإيلاف قريش.. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويشرح الإمام الألوسي معنى الإيلاف فيقول: اجتماع مع التئام. ومع هذا الإيلاف ينمو تفاعل الإنسان مع نظامه التنموي حتى تصبح المهارات المطلوب اكتسابها ملكة في طبع الإنسان وليست صنعة فحسب.

من أجل ذلك ينبغي أن يكون الاختيار التنموي مراعيًا لقدرات الناس العلمية والتقنية، أو قل بأسلوب القرآن: "من أمرهم العلمي والتقني" وليس من أمر الآخرين العلمي والتقنى :**﴿ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهيئ لنا من أمرنا رشدًا﴾**.

وإن تصميم منظومة الإيلاف التنموي لمن الأمور العظيمة التي ينبغي أن يوليها المخطط التنموي كل رعاية واهتمام .

الامتداد الزمانى

كل تنمية منبتة لا جذور لها فى تاريخنا ولا امتداد لها لأحفادنا هي تنمية مرفوضة. والحفاظ على ما ورثناه وعشنا به قرونا أمدًا وتسجيله وتطويره للوارثين من بعدنا عمل مطلوب حضاريًا .

بالطبع نحن محاصرون تنمويًا، والإغواء بترك ما بأيدينا من تقنيات بسيطة والانتقال إلى تقنيات جديدة لا نملكها ولم نألفها يدق فوق رؤوسنا ليل نهار.

في بلد كمصر وربما في بلاد الشام من حولنا عاش أجدادنا على صناعات صغيرة ناجحة للغاية. إننا في مصر نصنع كل منتجات ألباننا من غير ثلاجات وبأقل قدر من الطاقة. أمهاتنا يحلبن البقر والجاموس ويضعن ذلك في قربة يعلقنها ويظللن يدفعنها يمنة ويسرة حتى ينفصل الزبد من اللبن . هذا اللبن الباقي يصنعن منه الجبن القريش. أما الزبد فتصنع منه السمن الفلاحي التي لا تحتاج إلى حفظ لمدة عام على الأقل . أما الجبنة القريش فنأكل منها طازجة (أو صابحة كما نقول) وما بقي نلقي به في جِرَار المش... وكلما قدم طاب وحسن، وقطعة من الجبن القديم العتيق خير من ألف نوع من الجبن الماسخ الذي يأتينا من أعالي البحار وتمتلئ به ثلاجات محلات البقالة .

لماذا لا نحافظ على هذه التكنولوجيا ونطورها فأحسبها تكاد تندثر. الاختيار التنموي ينبغي أن يضع نصب عينيه عملية التجذير الزماني: الأمس واليوم والغد .

وبالنسبة للامتداد الزماني المستقبلي تحضرني قصة موسى والعبد الصالح في سورة الكهف عندما استطعما أهل قرية فأبوا أن

يطعموهما فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه الرجل الصالح فيقـــول له موسى : ﴿لو شئت لاتخذت عليـــه أجــرًا﴾، فيقــول لـــه العبــد الصالح : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَـهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِــكَ تَــأْوِيلُ مَــا لَـمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٨٢) .

فأمر الله أن يبقى الكنز خافيا حتى يستطيع أصحابه أن يســتخرجوه بقوة سواعدهم وبقوة علمهم، أي أن الإرادة الإلهية شاءت أن يختفـــي الكنز حتى يبلغ الغلامان أشدهما من قدرة على الاســـتخراج ســواء كانت هذه القدرة بدنية أو قدرة علمية.

فإذا نظرت اليوم ورأيتنا نلهث وقادتهم وراء الأمم القوية ليكشـــفوا هم كنوزنا ويستخرجوها لأنفسهم ويتركوا لنا الفتات فـــاعلم أن هــذا سلوك يحرمه الفهم القرآني أشد التحريم وأن هذا ليس مـــن التنميــة الإسلامية فى شىء .

الامتداد المكانى

لكل تنمية أرض تعلو فيها وتزدهر وتتفاعل فيها الجغرافيا مع القيم والتقنية السائدة. وقد يكون عالم الأشياء الذي تنتجه هذه التنمية مــهمًا

لأقوام آخرين بتعديلات مختلفة ، ومـــن ثـــم فـــإن المشـــاركة فـــى السوق العالمية (من غير رغبة في العلو والفساد) ودعمه بسلع طيبـــة نحن قادرون عليها هو أمر محمود للغايـــة فـــي ثقافتنـــا . الامتـــداد المكانى فى ثقافتنا امتداد تكامل وليس امتداد علو وقهر وفساد .

نحن لا نسلط على الناس أجهزة الإعلام بالســـحر ليـــترك النـــاس الطيب الذي فى أيديهم ويستبدلوا الخبيث به .

والقسط هو أساس التكامل المكانى : أعطيك بترولا وآخـــذ منـــك بضاعة أخرى.. من غير تطفيف؛ هو وليد ضعفنا وعلوهم وفســـادهم القيمى .

حتى التنمية الرياضية ، والرياضة هـــذه الأيـــام تجـــارة، فإنـــهم يزينون لنا أنواعا منها لا تصلح لها بلادنا على الإطلاق مثـــل لعبـــة الجولف . إن بلادهم تتمتع بخضرة طبيعيـــة مجانيـــة ، أمـــا عندنـــا فالحفاظ على ملعب للجولف مكلف للغاية .

الامتداد المكانى امتداد تكامل بما ينفع الناس فى الأرض من غـــير علو ولا فساد .

ومن الامتداد المكـــانى الانتشـــار فـــى الأرض وعـــدم الاكتظـــاظ فيها؛ فالانتشار فضيلة إسلامية ﴿ **يا أيها الذيـــن آمنـــوا إذا نـــودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خـــير**

لكم إن كنتم تعلمون * فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ (الجمعة : ٩-١٠) ، فإذا كان التفسح فضيلة في المجالس وهي بطبيعتها مكتظة فما بالك بالتفسح في العيش في الأرض وهي ذلول رحبة **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾** (الملك : ١٥) ، والذين يكتظون في الأرض يتدافعون بالمناكب في كل شيء فتنشأ بينهم أمراض الاكتظاظ ويكثر فيهم الصراع ويستدعي ذلك ضبطا شديدا من قبل الدولة يتحول مع الأيام إلى قهر واستبداد وتقلص حرية الأفراد رويدا رويدا حتى تصير إلى زوال .

ولقد رأينا ذلك كله في مدننا المكتظة التي فقدت فرصها التنموية كما فقدت الحرية . والتنمية الحقة هي التي تحقق وسطية بين فضيلة الانتشار في الأرض المطلوبة من أجل الإعمار ، وبين قدرة الدولة على السيطرة الأمنية واستدعاء الأطراف عند الخوف من غير أن يسحق الإنسان في اكتظاظ مرضى أو أن يفقد الانتماء في انتشار تخلخلي يفقده الارتباط بالدولة وفكرتها .

طيف التنمية

لعلنا نلخص طيف التنمية المرجـو فـي ثلاثـة عنـاصر أساسية:

أ – تنمية البقاء .

ب – تنمية النماء .

جـ – تنمية السبق .

وسوف يستتبع ذلك أيضًا طيف تعليمي؛ فيكون عندنا تعليم للبقاء وتعليم للنماء وتعليم للسبق .

والملاحظة الأولى التي أحب أن أصرف إليها الانتبـاه هـي أن الطاقة البشرية سوف تتوزعها أنوع التنمية بنسب مختلفـة، فالنسـبة الكبرى تعمل في خريطة أعمال تنمية البقاء، ثم تليها تنمية النماء، ثـم تنمية السبق .

تنمية البقاء

ونعنى بها الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية وعزائم الرجـال من أجل تحقيق اكتفاء كريم في متطلبات الحياة الأساسية من طعـام

وشراب وكساء واضعين نصب أعيننا طهارة البيئة من حولنا والقصد والاقتصاد في كل شيء .

وفى هذا النوع من التنمية يُخطط عالم الأشياء بحيث يحقق العيشة الكريمة وبحيث يصنع أغلبه إن لم يكن كله بأيدى الناس ، مقللين ما استطعنا من الميكنة .

ما طبيعة الأعمال في هذا النوع من التنمية وما طبيعة التعليم الذي يصاحبها؟ وللإجابة على ذلك حسب مفهومنا لتنمية البقاء **نضرب المثال التالى:**

فى منطقة زراعية يتوفر فيها الماء والأرض الصالحة يجب أن نرسم خريطة الأعمال المطلوبة لتحقيق تنمية البقاء ، سواء كانت أعمال زراعية أو تصنيع منتجات زراعية أو خدمات زراعية أو تربية حيوانية... وحينئذ نصمم مناهج التعليم بطريقة تعين الطالب ليتفاعل مع البيئة تفاعلاً مثمرًا . وما أن يبلغ الطالب السادسة عشرة حتى يكون قد امتهن مهنة هو قادر عليها، فإن شاء أن يكمل دراسته فى نفس ميدانه ، وكان عليها قادراً مادياً وعلمياً، فينبغى أن نوفر له الفرصة . وإن شاء أن يمضي في الحياة العملية بضع سنين يجمع فيها خبرة عملية فلا بأس ، ويستطيع أن يعود متى شاء للدراسة وسوف نعينه بمعينات سمعية وبصرية كتابية فى برامج تدريبية

مختلفة . وبذلك يسهم الطالب فى خريطة الأعمال الخاصة بتنمية البقاء فترة من حياته تطول أو تقصر حسب استعداداته النظرية وهمته الحضارية .

تنمية النماء

ويتبنى هذا النوع من التنمية عالم أشياء من النوع السائد فى الحضارة المعاصرة وخاصة الضرورى منه مما يتعلق بوسائل الدفاع واستخراج كنوزنا المدفونة وتصنيعها وما يستتبع ذلك من نظام تعليمى وتدريبى وبحثى. وفي العادة يكون من ثمرات هذا الطريق نمو عالم الأشياء نمواً سرطانياً قد يضر بالإنسان ، ومن ثم فإنه ينبغى تصميم منظومة تنمية النماء بحيث تحاول تلافى ما حدث فى الغرب من إفساد شديد للبيئة .

والقاعدة التى ينبغى أن نحرص عليها هى ألا نتبنى عالم أشياء نحن غير قادرين على تصنيعه أو خدمات يصنعها لنا غيرنا ، ومن ثم ينبغى أن يكون معدل النمو في عالم أشيائنا أبطأ من تقدمنا العلمي والتقنى إلا في حالات الضرورة القصوى والتي ينبغى ألا تزيد عن نسبة ضئيلة تتجه معظمها إلى قضايا الدفاع .

وتستطيع برامج تنمية النماء أن تعمل على تطوير آليات تنمية البقاء من خلال البحوث المتقدمة التى تهتم بتطوير الوسائل المستخدمة وإبداع طرائق جديدة لترشيد الطاقة وتحسين الأنواع والقضاء على المعوقات والأمراض وكذلك عمليات التكامل بين الأنشطة المختلفة في تنمية البقاء . فمثلاً تستطيع البرامج المتقدمة فى تنمية النماء أن تعمل على تصميم طواحين هوائية مناسبة لرفع المياه وتوليد الكهرباء بحيث يمكن تصنيعها في ورش صغيرة مما يندرج في تنمية البقاء . كما يمكن استنباط أنواع جديدة من السلالات يدرب عليها المزارعون . كما يمكن عمل بحوث عن طرائق بسيطة لنصنع الطوب من طفلة متوفرة وتصميم منزل قروى مناسب ، كما يمكن تطوير الآلات المستخدمة في الزراعة... إلخ.

كل ذلك وغيره لا يمكن القيام به إلا من خلال منظومة علمية بحثية لا يمكن توافرها إلا من خلال نوع متقدم من التنمية وما يستتبع ذلك من عملية تعليمية وتدريبية تستدعي برامج جديدة في المعاهد والجامعات .

نلخص القول

إن مهمة تنمية النماء هو: التحسين المستمر لآليات تنمية البقاء بحيث تظل مبقية على طهارة البيئة ، والتشغيل الأمثل لطاقات البشر،

مع العمل على الحد من تخليق عوالم أشياء ترفيهية قـــدر الإمكـــان وكذلك على إنجاز كل متطلبات عالم الأشياء الخاص بالدفاع .

تنمية السبق

ونعني بها فـــي مثـــل ظروفنـــا أن نختـــار لأنفســـنا بعـــض الميادين التى نستطيع السبق فيها وأن ننجـــز فيـــها علـــى مســـتوى الأمة أو على مستوى العالم شيئًا مرموقًا .

فمثلاً فى بلد كمصر نملك ناصية الثقافة العربيـــة والإســـلامية ونستطيع السبق تنمويًا بهذه الثقافة؛ لأن خدمة هذه الثقافـــة العربيـــة الإسلامية تقوم على فكر تنموى لتصنيع الكتـــاب والشـــريط والفيلـــم والبرامج الدراسية وتسويق ذلك كله في كل أنحاء العالم .

وفى مصر مثلاً نملك أيضاً السبق فى ميادين السياحة ، ونملـــك أيضًا السبق فى بعض أنواع الزروع .. ولذلك فـــالمخطط التنمـــوى ينظر هل عنده ما يسابق به أم أن زمنه ليس زمن سباق ؟

إننا مثلاً لا نستطيع أن نسابق أمريكا الآن في ميادين تقنية بعينها ولا تثريب علينا فى ذلك . ولكننا نعرف إمكانياتنا الثقافية والســـياحية وبعض الزراعية ويمكننا أن ندخل في سباق إن أحسنا التخطيط لـــهذا السباق .

ضوابط التنمية

هناك ضابطان أساسيان لأي نظام تنموى : ضابط للنواحى الإنسانية وضابط للنواحي الكونية . من الناحية الإنسانية كل تنمية لا بد أن تحافظ على أهداف الملك فى الإسلام ، وهى : تعظيم السكينة الاجتماعية وتفعيل القيم التى جاءتنا وحياً : ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (البقرة : ٤٨) . والتابوت يمثل أدوات الحفظ من مناهج وبرامج وخطط في السياسة والاقتصاد والاجتماع التي تعظم الحفاظ على السكينة الاجتماعية وعلى القيم الخالدة التي جاءتنا وحياً﴿.. **وبقيةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هارون تحمله الملائكة**﴾ أى وحيًا، ومن ثم فكل تنمية تضعف الأواصر الأسرية تنمية مرفوضة ، وكل تنمية تؤدي إلى شيوع الترف بين قلة باغية وشيوع الفقر بين كثرة مسحوقة تنمية مرفوضة ، وكل تنمية تؤدي إلى هشاشة النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعي تنمية مرفوضة ، وكل تنمية تدفع الناس بعيدًا عن ربهم وعن شريعة دينهم تنمية مرفوضة .

هذا من ناحية الإنسانية، أما من الناحية الكونية فكما قلت من قبل إننا في حضارتنا نتعامل مع البيئة المحيطة بنا بالقصد والاقتصـــاد . والبيئة خلق من خلق الله نحبها ونفهمها ونسخرها في سبيل الله .

وفى حضارتنا لا نعرف كلمة قهر الطبيعة فنحن لا نقهر خلقًـــا من خلق الله، وإنما نعامله بالإحسان الذى أمر به الله في الأمر كله .

ومن هذا المنطلق يصغي ملك عظيم لصراخ نملة.. يفهم منطقها ويبتسم لصراخها. وسليمان وإن وهبه الله هذا الأمر حظاً عظيماً لـــه فإن الإنسانية مطالبة بالعمل الدؤوب والصبر المبين حتى تصل إلـــى هذا التناغم المعجز بين الإنسان والبيئة .

قرأت مرة فى إحدى المجلات الأمريكية أنه لولا النمل لتعطـــن سطح الأرض ، ولَمَا كانت على وجه الأرض حياة. فانظر رحمـــك الله لحضارتنا التقنية التي تلقي كل يوم بأطنان المبيدات علـــى الأرض تهلك كل الحشرات النافعة .. وذلك حتى تزيد من إنتاج طعام ماســـخ لا مذاق له .

علَّقتُ مرة على موقف سليمان والنملة الصارخـــة ؛ فقلـــت إن موقف الإسلام من البيئة المحيطة يتلخص في ثلاث كلمات : الفـــهم والحب والتسخير. وهو هو سليمان الذي سَخَّرَ هدهداً ليرأس جـــهاز

مخابرات ذكيا.. هدهدٌ يحلل المجتمع الذي يعمل على وصفه للملك من الناحية السياسية والعقدية والاقتصادية والاجتماعية بأذكى الكلمات : **﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾** (النمل : ٢٣) نظام الحكم استبدادى ، **﴿وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾** (النمل : ٢٣) وفرة اقتصادية ، **﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾** (**النمل : ٢٤**) الشرك العقدى ، **﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾** (العنكبوت : ٣٨) الوضع السلوكي والأخلاقى .

إن ضابط البيئة في حضارتنا ضابط شديد البأس ، فنحن من أمة -حتى وهي في الحرب- لا تقطع شجرة ولا تحرق نخلة ، ولقد **﴿ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾** (الروم : ٤١) ولكن الرجوع عملية صعبة جدًا، فمن الذي يطالب الشركات الجبارة العابرة للقارات أن توقف هذه الصناعات التي تلوث البيئة تلويثًا عظيماً، والله يقول : **﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾** (**القلم : ٤٢**) ، ويقول أيضاً : **﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾** (الأنبياء : ٩٥) .

وأنا أنصح الذين يظنون أني أبالغ فيما أقول أن يقرأوا الكتـــاب الرائع للعالم الأمريكي جيمى رفكن "الإنتروبى " والذي يقـــول فـــي نهايته بعد أن استعرض كل ألوان الفساد البيئي في الكون المحيـــط : " إن الحل وليس هناك حل غيره هو العودة إلـــى مـــا قبـــل الثـــورة الصناعية الأولى " .

دور الدولة ودور الفرد ودور الجماعات الحضارية فى التنمية

أرجو القارئ أن يراجع هذا الموضوع في كتابي "دراسة قرآنية في فقه التجدد الحضاري"، دار نهضة مصر، ولكنني سألخص هذا الأمر ما استطعت .

دور الدولة: عرفت دور الدولة التنموى بأنه يتلخص في التخلية بين الإنسان وترابه الوطنى ليتفاعل معه في ظل عقيدة وشريعة ونظام ليصنع طعامه وشرابه ولباسه .

والتخلية تستدعي أموراً عدة من قبل الدولة، منها:

*** فلسفة راشدة وتخطيط حكيم يؤدي إلى ترجمة التنمية إلى خريطة مشروعات حقيقية يمكن القيام بها من خلال مؤسسات حقيقية وطنية .**

*** البنية الأساسية تصمم بعناية بحيث يقوم أصحاب المشاريع بتوسيعها كل فى اتجاهه .**

*** التعليم والتدريب الأساسيان والمرتبطان بمشاريع التنمية الأساسية على أن يترك أمر التعليم المتقدم للجهد التنموي ليحقق متطلباته من التعليم والتدريب .**

*** حماية السوق الوطنية من خلال فلسفة راشدة للاستيراد والتصدير في توازن لكل القطاعات التنموية المرجوة .**

*** الصياغة التنموية لكل مشروعات الدولة .**

*** إدارة مشروعات الدولة التنموية بمفاهيم إدارية تقوم على العدل مثل "الثواب والعقاب" والأجر والحياة الكريمة... إلخ.**

*** إنشاء المنظومة البشرية التي تخطط للتنمية وتتأكد من اندفاع البشر إليها ثم القيام بقياس النتائج وتصحيح المسارات .**

إن اندفاع البشر نحو تحقيق أي فكر تنموي سوف يتطلب بعثًا ثقافيًا، وإعدادًا عقليًا، وتدريبًا سلوكيًا، وإقناعًا مصلحيًا، ومن ثم لا بد أن تتيقن الدولة من المنظومة القادرة على هذا كله سواء من خلال جهدها أو من خلال جهد الجماعات الحضارية والهيئات الشعبية .

دور الفرد

كتبت من قبل أن دور الفرد بالغ الأهمية فى أى مهمة تنموية ، فكل تخطيط من قبل الدولة يحتاج بالضرورة إلى مواصفات خلقية ومهنية من قبل الفرد حتى يمكن للجماعة أن تنجز مهامها .

والقرآن يعلمنا أن هناك مثلثًا حضاريًا يتعلق بالفرد، أضلاع هذا المثلث هى : العطاء – التقوى – التصديق بالحسنى .

التقوى تحدد أدب العطاء وغاياته العليا وفق فقه بصير .

إن التقوى للعطاء كالحكمة للعلم ، فكل علم لا توجهه حكمة يضل ولا ينفع ، كذلك كل عطاء لا تقوده تقوى هو عطاء مجذوذ

فالتقوى تحدد لك لمن العطاء... عطاء المدين للدائن... كعطائك لأبيك ولمجتمعك كما تعهدوك صغيرًا، أم عطاء شكر النعم.. **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها..﴾** . والتقوى تعلمك أدب العطاء ، فينبغى ألا تندفع إلى موقع تعلم أن فى الأمة من هو خير منك ، والقرآن يعلمنا فى آية " الأمانات " هذا المعنى الجميل ويعتبر أن ذلك من الأمانات التى ينبغى أن تؤدى إلى أهلها **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها...﴾** والأمانات نوعان كما يقول الفقهاء : أمانات الأموال وأمانات الولايات ، وكل ولاية تتطلب شروطًا علمية ومهنية وخُلقية وخَلقية تتوافر في البعض ولا تتوافر في البعض الآخر، والذين يندفعون إلى ولاية ويزاحمون عليها، وهناك من هو أحق بها منهم مجرمون آثمون .

كما أن الذى يعلم أنه أهل لولاية من كل من حوله فمن حقه أن يرشح نفسه لها؛ لأن مصلحة الأمة فوق الحياء ولا حياء في الحق.. والقرآن عندما قال : **﴿فأما من أعطى﴾** .. تركها من غير تحديد..

فكل يبحث عن قوته ، أو عن " الذى بيمينه " ويلقيه إلى المجتمع ، والتصديق بالحسنى قوة دافعة للمؤمن ، حيث إن ثمرات العطاء لا تأتي دائماً كما يتوهمها الناس ولا في الوقت الذى يحسبونه ، وربما أقعدهم ذلك عن العطاء أو جعله ثقيلاً على النفس شديدًا عليها يجعلها تأتيه من غير إبداع ولا ابتكار، ومن هنا كان التصديق بالحسنى والإيمان بأن الله سيجزى المحسنين خير الجزاء في الوقت الذى يشاء وبالطريقة التي يشاؤها، هو المكمل للمثلث الحضارى : العطاء التقوى التصديق بالحسنى .

دور الجماعة

لَخَّصتُ مرة دور الجماعة في أربعة أمور:

* **تحجيم الفتنة .**
* **مؤسسات الحض على إطعام المسكين .**
* **مؤسسات الماعون .**
* **مؤسسات الإعداد للقوة .**

فالجماعة ينبغى أن تحرص من خلال نظمها القانونية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية على تحجيم الفتنة لدى الأفراد في مواقعهم في الحياة . إنك أحيانًا تواجهك قوانين تضطرك

اضطرارًا أن تتفلت منها، بحيث يصبح هناك شرعان : شرع حكومي وشرع عرفي .

وأحيانًا يحيط بك نظام اجتماعي يفتن الناس في دينهم مثل الأعراف السائدة في قضية الزواج والمهور.

ومن واجبات الجماعة إنشاء مؤسسات الحض على إطعام المساكين ومؤسسات الماعون. إن الحض على طعام المساكين وتقديم الماعون هي مهمة المسلم الإعمارية ، ومن أجل ذلك لا بد أن يكون هناك بالضرورة طعام يطعم وماعون يقدم... ففاقد الشيء لا يعطيه .

والمجتمع الذي يفتقر إلى هذه القوى الحضية التعاونية سوف ينهار لا محالة من داخله. ذلك أن أي مجتمع يحتاج إلى قوى تماسكية تمسك به ، والمجتمع المسلم يستخدم قوى كثيرة لهذا التماسك أهمها قوى الحض والماعون .

والحض يمكن أن يكون فرديًا بأن تحض نفسك، ولكن ليؤتي الأمر أُكله لا بد من قيام مؤسسات حضارية تقوم على هذا الأمر ، وهي بطبيعة الحال مؤسسات تنموية توفر فرص العمل الكريم للناس ، فرص عمل حقيقية تؤدى إلى إعمار حقيقى .

في العالم ما يزيد على مائة ألف منظمة خيرية تنفق على أبواب الخير من علوم وتكنولوجيا لا تجد منها في بلادنا منظمة واحدة ، فمعظم منظماتنا الخيرية مشغولة بدفن الموتى أو بأشكال تافهة من النشاط الاجتماعي المظهرى .

إن الوقف الخيرى على التنمية فرض عين على القادرين ، ولقد دعوت من قبل إلى إنشاء مؤسسة للتنمية التقنية وتبناها اتحاد المنظمات الهندسية الإسلامية ، ومضيت أدعو لها بعض المؤسسات والأفراد فلم أجد إلا تثاؤبًا وكأن الأمر لا يعني أحدًا . على كل حال لقد وضعتها أخيرًا في رقبة أخي الأستاذ الدكتور أحمد على وبنك التنمية الإسلامى وتركتها أمانة لهم ، وأدعو الله أن يعينهم على إنشائها تحت مظلة البنك .

صراع الأنساق التنموية

يُرَوِّجُ الغرب اليوم لفكرة " صراع الحضارات " ، والحقيقة أن هذا غطاء خادع لحقيقة " صراع الأنساق التنموية " ، حيث يحيطوننا من كل جهاتنا الأربع ومن فوق رؤوسنا ومن تحت أقدامنا بعالم أشياء تنميتهم ، نستبدل بهذا الأدنى الذى هو خير من عالم أشيائنا من طيبات ما رزقنا الله .

والغريب أنهم يزينون لنا تبنى عالم أشيائهم بإعلام ساحر أنفقنا فيه أموالاً ، ومذيعين ومعدى برامج وفنيين، ولقد أعطيت محاضرة منذ فترة قريبة فى ندوة عن العولمة والإسلام في كلية دار العلوم – جامعة القاهرة، وأنا أرفق نصها مع هذه الورقة وسوف يجد فيها القارئ تشريحًا وتفصيلاً لقضية صراع الأنساق التنموية أو العولمة التنموية .

الطاقة البشرية لتحقيق وإدراك التنمية

من الفلسفة إلى الحقول:

نحن نحتاج إلى طيف من الرجال نبدأ فيه من الفلاسفة الذين يستطيعون أن يدرسوا إمكانيات المجتمع الإنسانية والمادية ويدرسوا الضغوط الدولية والمحلية ثم يخرجوا علينا بأهداف واضحة جزئية تترجم الأهداف الكبرى للتنمية الإسلامية: "الإطعام من جوع، والأمن من خوف".

والقرآن يجعل وجود هذا النوع من الرجال فرض عين على الدولة: ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢) فإذا كان التصور الفلسفي واضحًا فإن المهمة التالية هى مهمة علماء النظم كل فى تخصصه، عالم النظام الزراعي يأخذ هذه الأهداف وينظر إلى المنظومة الموجودة، فإن كانت تحقق ما نريد فخيرا، وإلا فنعود عليها بالتطوير والتغيير ونقيس أداءها حتى تصبح كما نريد.

وسوف يحتاج علماء النظم أن ينظروا فـــى كــل المنظومــات المعاونة لمنظومة التنمية مثل منظومة التعليــم ومنظومـــة التدريـــب ومنظومة الخدمات ومنظومة الطاقة ، ويحاولوا أن يضعوا لها أهدافًـا تجعلها قادرة على إنجاز الأهداف الكلية. إن المهمة النهائيـــة مثــلاً للتعليم والتدريب هى " إيلاف الناس أعمالهم فى منظومة التنميـــة " ، وكما أسلفنا فإن الإيلاف هو عملية تطبيع جميل للإنسان مع العمــــل الذي يقوم به.. يزينه له ويحببه فيه.. وحينئذ يطيب العطـــاء وتحلــو الحياة بفضل ربها .

الفصل الثانى

الهيكل الأساسى للتنمية

الهيكل الأساسى للتنمية

فى عالمنا الإسلامى لا تخطط الشعوب لمستقبلها إلا قليلاً . وهي إن خططت تضع هياكل ناقصة ، ثم تسأل بعد ذلـــك أيـــن الـــداء.. وتستمع حينئذ إلى العلماء وهم يشخصون أدواء أمتهم فتشعر بالمرارة والغثيان .

والداء هو في كثير من الأحيان فى المنظومات المفقودة أو هـــو في المنظومات الناقصة ، ولو انتبهنا إلى ذلك لوضعنا أيدينـــا علـــى كثير من الأدواء الشائعة . ومن هذه المنظومات الناقصـــة منظومـــة التنمية، وهي منظومة يعهد بتصميمها في بلادنا لرجال الاقتصـــاد ، وهم إن كان لهم دور لا ينكر في مثل هذا التصميم لكنه جـــزء مـــن كل ، ومن ثم يأتي التصميم دائمًا ناقصًـــا، ونعـــاني مـــن تدهورنـــا التنموى والاقتصاد معًا .

وأشعر أحيانًا وأنا أقرأ فى سورة النحل أن آيـــة واحـــدة منـــها تعطينا الفلسفة الأساسية للتنمية.. اقـــرأ إن شـــئت قولـــه تعـــالى :

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِـــنَ الشَّـــجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّـــكِ ذُلُـــلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ

﴿لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل : ٦٨، ٦٩) فالله تبارك وتعالى قد ألهم النحل أموراً ثلاثة .. كيف يسكن ، كيف يأكل ، كيف يكون حرًا ، ثم عقب المولى بأن هذه الأمور الثلاثة متى تحققت فى حياة النحل فإن هذه الحشرة الصغيرة سوف تعطي الإنسانية والوجود عسلاً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ، فهل لنا أن نقول بأن هذا هو المفهوم النحلى للتنمية... وما الذى يمنع الناس أن يكونوا كالنحل .. وما دور الدولة وأنظمتها المختلفة في هذا المنع.. ما دور نظمها القانونية ونظمها الاقتصادية ونظمها التعليمية ونظمها الاجتماعية فى منع الناس من أن يكونوا كالنحل.. ومتى تخلي الدول بين الناس وبين ترابهم الوطني ليتفاعلوا معه .. وما هي التنمية من جانب الدول إن لم تكن هى التخلية بين الإنسان وترابه الوطني يتفاعل معه فى ظل عقيدة موحية بالخير وشريعة منظمة لهذا الخير حتى يصنع بنفسه ولنفسه مسكنه وطعامه وشرابه وكل حاجياته فى هذه الحياة الدنيا فى حرية يتطلبها وجوده الإنسانى .

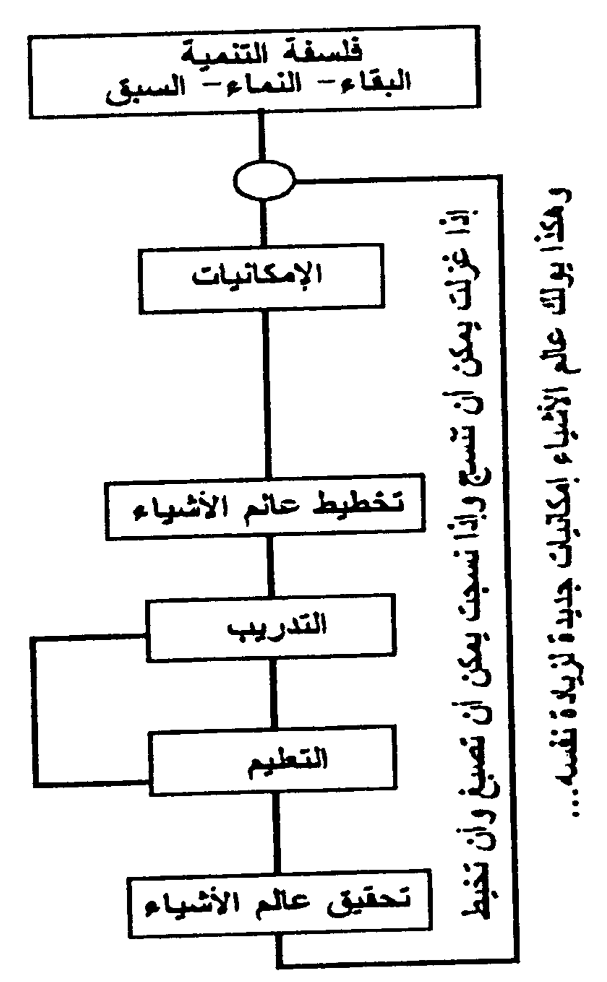
فإذا وضعت الدولة من القوانين والأنظمة المتعارضة والمتضاربة فى مجالات الحياة المختلفة ما يعوق الإنسان عن التفاعل مع ترابه الوطنى فلا تسل بعد ذلك عن تنمية أو نمو وبقاء .

وقد تفعل الدولة ذلك عن جهل وقد تفعله عن سوء نية من قبل بعض الفلاسفة من أهل الحكم ..ولكننا نحسب أن معظمه يحدث عن

طريق الغفلة.. ولهذا يستدعى الأمر أن تكون هناك منظومات حاكمة تحدد أهداف أجزائها المختلفة بوضوح شديد وتنشئ لنفسها نظمًا للمراجعة والمحاسبة، ولعلنا في هذا البحث نضع الهيكل العام للتنمية وارتباطاته المختلفة بعالم الأشياء وبالتعليم والتدريب . ولا بد من جهد يبذل لتفصيل هذه العلائق المختلفة والتأثير المتبادل بين المنظومات المختلفة .

حسبنا الآن أننا أشرنا إلى أهمية ذلك وطرحنا علاقات أولية..

ولعلنا نلخص تصورنا للهيكل الحضارى للتنمية فى الشكل الآتى :



ملاحظات حول الهيكل الحضارى للتنمية

إذا نظرنا إلى الهيكل المرسوم نرى أن ترتيب الأشياء يبدأ من تصور فلسفة التنمية وتحديد أحد الخيارات الثلاثة: تنمية البناء أو تنمية النماء أو تنمية السبق أو اختيار نسب من كل منها تناسب حال الأمة أو المرحلة الآتية.

ويتلو ذلك التعرف على الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة مع الأخذ في الاعتبار مجموعة من الضوابط الحضارية حتى لا تستنفد الإمكانيات وتلوث البيئة وتورث الأجيال التالية ضياعًا في ضياع، ثم يأتي بعد ذلك تخطيط لعالم الأشياء سواء كان ذلك في الملبس أو المسكن أو المأكل وما حول ذلك من عالم أشياء خادم.

ويتلو ذلك تدريب البشرية على صناعة عالم أشيائها وإنتاجها مع التقليل ـ قدر الإمكان ـ من الاعتماد على الخارج وتنظيم العمل ما وسعنا الجهد .

ويصاحب التدريب دائمًا نظام تعليمي يعين الناس على القدرة التدريبية، ويلحظ القارئ أننا وضعنا التدريب قبل التعليم حتى يتحدد هدف التعليم بوضوح وحتى لا تتكرر المأساة الدائمة في العالم الإسلامي والتى تطحن الناس في نظم تعليمية لا تعرف هدفًا تنمويًا واضحًا .

فإذا مضت المنظومة كما أسلفنا نكون قد استعددنا استعداداً جيداً لتحقيق عالم الأشياء وتصنيعه وتظهر مجموعة من الأسئلة المهمة...

من الذي يحدد فلسفة التنمية؟ من الذي يرصد الإمكانيات المادية والبشرية في الأمة؟ من الذي يخطط لعالم الأشياء؟ من الذي يصمم وينفذ منظومة التدريب والتعليم؟ من الذي يقدم على تحقيق عالم الأشياء؟

أحسب أن هذا كله يتم الآن بطريقة عشوائية من قبل مؤسساتنا الوطنية ، أما المؤسسات الأجنبية المنتشرة فى معظم البلاد الإسلامية فإنها تقوم بوضع فلسفة خاصة للتنمية فى هذه البلاد وتسهم في خلق وتكريس حالة الخلل وعدم الاتزان بين حاجات الناس وإمكانياتهم .

ولقد كان ذلك مقبولا في الزمن البطيء؛ لأن الاتزان بين حاجات الناس وعالم أشيائهم وبين إمكانياتهم كان يتم على مهل ، لكن في زمننا المتسارع في خطاه لا يتم هذا الاتزان بقوى وطنية وإنما يحدد دائما بأغراض استعمارية.

فحاليا يولد عالم الأشياء بقوى خارجية وبضغط إعلامى وبتخليق شرائح اجتماعية تتخذ لنفسها عالم أشياء أجنبيا ، ثم أجهزة الإعلام وقود هذا العالم للناس فيتدافعون إليه. ويزيد من حدة هذا الفساد انفتاح مجتمعاتنا عالميا لكل المنتجين فى الدول الاستعمارية وغياب المنظومة القادرة على تخليق عوالم أشياء وطنية والدفاع عنها .

أى أننا أمام عالم أشياء قهرى وتنمية قهرية.. مكونات هذا العالم من المواد الطبيعية والمصنعة معظمها من الخارج . ومن ثم فإنه ينتج مزيدًا من التبعية من خلال الحاجة المستمرة إلى الخارج .

إن طبيعية عالم الأشياء القهرى فى العالم الثالث تؤدى إلى تناقضات أساسية فى حياة الناس وأدت في حياة شعوبنا إلى النزوح المستمر من القرية إلى المدينة حتى اكتظت المدينة واختنقت.. فالبطالة سمة أساسية لحياة المدن أو عالمنا الثالث ؛ حيث المرأة فى هذه المدن محشورة فى شقة لا تستطيع أن تنتج ولو أرادت .. والرجل يذهب إلى المقهى .. لا عمل له ولو أراد.. الأطفال مسجونون في زنازين يسمونها شققًا وآباؤهم وأمهاتهم هم العسكر السجانون .. إنهم لا يسمعون آناء الليل وأطراف النهار إلا أصوات أهليهم آمرين .. لا تفعل يا ولد .. اتركى يا بنت ، الحذر من فعل أى شيء قد يؤدى إلى العذاب .

ولأن الناس قد حشروا قبل يوم الحشر في بيوت خانقة وحوار ضيقة فلا بد أن تظهر مشكلات المجاري والنظافة والمياه والكهرباء، ثم أخيرًا مشكلات الهواء.. الهواء الخانق الملوث بالموت الزؤام .

وفي مثل هذه المدن الكئيبة والتى تنمو بطرق سرطانية لا تسأل عن العلاقة بين السكن والعمل .. فالساكنون فى غرب المدينة يعملون في شرقها، وأولئك الذين يعملون في جنوبها يسكنون في

شمالها.. وهكذا تتحرك المدينة كل يوم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وتهلك أطنانًا من الوقود وآلافًا من المخلفات وتساعد على تشغيل الآلاف من المصانع في البلاد التي فرضت علينا نمط التنمية الذي نحاول اتباعه لاهثين .

انظر إلى مشكلة القمامة مثلاً.. نفايات بيتك أين تذهب بها ؟ . أنت تجهد نفسك في تنظيف بيتك وتلميعه.. ثم تلقي بقمامتك أمام بيتك ليلتقطها زبال ويقذفها بعيدًا بعيدًا عن المدينة في مزبلة عامة ، هذا إن حدث يكلف الأمة ما لا تطيق، ويضطرها إلى شراء أسطول من السيارات يحمل نفاياتنا إلى أماكن لم نكن بالغيها إلا بشق الأنفس . ذلك في الأحياء المحظوظة .. أما في بقية الأحياء فتظل القمامة ملقاة أمام البيوت في الشوارع تعبث بها القطط والكلاب فتنتشر في الطريق لتزيده مرضًا على مرض .. وربما حملها الهواء أو الأقدام مرة أخرى إلى بيتك ، فتظل تجهد نفسك فى دفعها خارجه في دوامة حضارية مضحكة مبكية .

ولو كنت تعيش في بيت متسع كما كانت تعيش كثير من الأسر الممتدة في قرانا وصحرائنا، في مثل هذا النمط من البيوت يوجد مكان يعيش فيه الحيوان والطيور.. بل هناك مكان خصص لزراعة ما تحتاج من الخضار ومن ثم ستتحول قمامتك إلى لحم طري شهي.. أنت تلقي بقشرة البطيخ فيلتقطه البط ليصنع لك منه لحمًا

ويلتقطه البقر ليصنع لك منه لحمًا ولبنًا خالصًا سائغًا للشاربين .. حتى مخلفات الحيوانات تختلط بالتراب فتصبح سمادًا طبيعيًا لزرعك.. ليس كهذا السماد الكيماوي الذي يفسد أرضك ويذهب بخصوبتها مع الأيام .

والحقيقة أنه لا تثريب علينا أن تكتظ بعض المدن بهذا النمط التنموى فى غفلة من الفهم الواعي على مستوى الدولة والأفراد ، على أمل أن نفيق ونقلع عن الاستمرار فى هذا الطريق ، ولكن الذي يحدث هو أننا مستمرون بقوة ، فى المضي في هذا الطريق حتى نهايته .. ولقد بدأت المشكلة بآلاف العاطلين من خيرة شباب الأمة الذين عطلهم نموذج التنمية المستوردة . إننا نجد فى مجال الصناعات والأعمال الهندسية -على سبيل المثال- أن الأجانب هم الذين يقومون بالأعمال ويشغلون الوظائف في حين يقف عندنا جيش من حملة المؤهلات الهندسية لا يجدون لهم عملا. وهذا هو ما نعنيه من التنمية المستوردة ، تلك التنمية التي لا تنظر فيما بين أيدينا وما خلفنا من مواد ولكنها تتطلع إلى أرض بعيدة لا قبل لنا بها.. وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩) .

ولا يظن امرؤ عجول أننا ندعو إلى نوع الحياة التى كانت سائدة فى قرانا من قبل ، تلك كانت معيشة تتناسب مع زمنها.. وإنما ندعو إلى نمط تنموي يستهدف عيش الإنسان عيشة كريمة.. عيشة يستخدم فيها أقصى ما يستطيع من جهد وأقصى ما يستطيع من إمكانياته، عيشة يصنعها هو لا تصنع له.. عيشة يتفاعل فيها بأقصى قوة مع ترابه الوطني في ظل عقيدة مشجعة وشريعة منظمة.. عيشة يتفسح فيها في بحبوحة أرضه الواسعة ولا يتراكم فيها في مدن كئيبة مكتظة .

وفي المثال الذي ضربناه من قبل عن موضوع القمامة بين المدينة والقرية يمكن استخدام الطرق الحديثة لتحويل القمامة إلى طاقة منتجة، فمثلاً يمكن استخراج البيوجاز من هذه المخلفات، ويمكن استخراج نوع من السماد أحسن بكثير من سماد القرى ومن السماد الكيماوي.. ولكن ذلك يستدعي نظامًا للإعمار يختلف عن النظام السائد اليوم في مدننا الكئيبة .

التخطيط لعالم الأشياء

إذا حاولنا الآن أن نضع مخططًا عامًا لعالم الأشياء الذي نحتاج إليه فإننا نستطيع أن نحدده في الآتي:

(١) اختيار فلسفة التنمية [بقاء أم نماء أم سبقًا؟] .

(٢) المنتج.. توصيف عام لمنتج ضروري ومدى الحاجة الحضارية له عمليًا وقوميًا وعالميًا.

(٣) المواد المستخدمة وما هي نسبة المواد المحلية إلى المواد المستوردة . وما هى احتمالات تقليل المواد المستوردة ، والتى يستبدل بها مواد محلية أو مواد موجودة في منطقة صديقة من مناطق الكيان الاجتماعي الحضاري الإسلامى ، والجدوى الاقتصادية والحضارية وراء أي اختيار .

(٤) طرائق تشغيل المنتج .. طرائق يدوية لا تحتاج إلى ميكنة (تعظيم هذه الطرائق) طرائق تحتاج إلى ميكنة، مع دراسة احتمالات التشغيل المختلفة والجدوى الاقتصادية والحضارية لأي اختيار.

(٥) التدريب على تشغيل المنتج.. توصيف تشغيل المنتج توصيفًا دقيقًا، مع دراسة تقسيم عمليات التشغيل إلى أشياء بسيطة

يمكن التدرب عليها بسهولة.. هل يحتاج التدريب إلى مناخ تعليمي عام وقدر معين من التعليم على مستوى المتدرب مثلاً ؟ .

(٦) التعليم من أجل التدريب. نوعية التعليم المطلوب ومستواه.

(٧) منظومة فنية واقتصادية لتصنيع المنتج وتسويقه.

ونقترح هنا أن نعمل قاموسا بعالم الأشياء المرجو على مستوى الحي أو المنطقة أو الدولة حسب نوع التنمية وحسب مجالها من حيث هي تنمية شاملة أم تنمية محلية.

ولنضرب مثالاً مفصلاً لما سبق وهو مثال اللباس:

(١) **فلسفة التنمية**.. اختيار تنمية البقاء مثلاً حيث لا استثمارات ومن ثم لا مصانع ضخمة ولا قروض ولا فوائد، وإنما ينبغي أن يتم كل شيء بجهد ذاتي ودون الاعتماد على الخبرات الأجنبية.

(٢) **المواد المستخدمة**.. القطن – الكتان – الحرير – الصوف.

(٣) **طرائق تشغيل المنتج** والإمكانيات المتاحة ووجود معرفة بعمليات الغزل والنسيج والصباغة والحياكة لنماذج وطنية من الملابس. ووجود معرفة بتصنيع آلات بسيطة للقيام بهذه العمليات المختلفة، رغبة وتوجهًا لدى الناس للعمل اليدوى ، ورغبة وتوجهًا لدى الناس لاتخاذ اللباس الوطني وصدود عن التقليد .

(٤) وجود منطوق للتدريب.. نقوم بتقسيم العمل وصولاً به إلـى حرف يدوية صغيرة ثم عمل نظام لتوزيعه على الناس لبدء شـرارة الأسر المنتجة والتي يمكن أن تنمو بعد ذلك ذاتيًا.

(٥) تعليم الناس التعليم الكافى لخدمـة المنظومـة التدريبيـة والتصنيعية .

(٦) تخليق عالم الأشياء الضروري لبدء الصناعـة المطلوبـة (مثل صناعة الأصباغ والأنوال).

(٧) بدء تصنيع عالم الأشياء من خلال منظومة تقـوم بـدور الشرارة ثم يترك الأمر للنمو الذاتى .

الفصل الثالث

التعليم والبطالة

التعليم والبطالة

قلبت في أوراق كتبتها من قبل عن التعليم في لقاءات متفرقـــة، ورأيت أن أعيد بعض ما كتبت من قبل في هذه المقدمة ، وجديرٌ بـي أن أسهب في عرض قضية التعليم والبطالة وأقترح بعض الحلول.

قلت مرة بأنني أعرف صاحب أرض يرفض تعيين أحــد مـن السادة المهندسين الزراعيين الذين يمتلـئ بـهم السـهل والـوادى ، ويفضل عليهم شابا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه تعلم كيف يزرع، وتعلـم كيف يدير ويصون ماكينة المياه، وتعلم كيف يقود ويصون الجـرار الزراعي. وكان هذا التعليم كله في مدرسة الحقل؛ أقصــد مدرسـة العمل من صغره صبيا في المزرعة .

هذا الشاب لا يشكو فاقة.. لقد تزوج صغيرًا ويدخر من مرتبـه وينفق على أهله، بينما من هم في سنه يضطجعون على الأرائك فـي قاهرة المعز يأكلون ويشربون ولا ينتجون ولا يستحون، ثم يتحدثـون في سياسة العالم وفي سياسة الكون .

إن هذا الشاب لا يعرف أين تقع نيكاراجوا ، ولا يعرف بالتـأكيد عن الهند إلا أنه ليس هنديا ، يعيش هو وأمثاله ممن أخطـأهم نظـام

التعليم الحالي فى بحبوحة كريمة .. بحبوحة كنا نحارب الدولة فـــى الأربعينيات إشفاقا عليهم منها حيث كنا نظنها حينئذ معيشة ضنكا.

إن هذا الشاب وأمثاله يسهمون فيما نسميه بتنمية البقـــاء والتـــي تتمثل في القدرة على العيش بعالم أشياء بسيط جدا يحقـــق الاكتفـــاء القانع بالاحتياجات الأساسية ولا يزيد .

وأول ما يلفت نظرنا هو أننا قبل خمسين عامـــا كـــان نظامنـــا الحياتي قد استمرت أموره في إطار تنمية البقاء وما تبعـــها واســـتقر معها من نظام تعليمي وتدريبي؛ فمنظومة التعليم والتدريب حينئذ لـــم تكن منظومة حكومية بأسرها، فآلاف الورش تخـــرج آلاف العمـــال الذين يصنعون لنا كل ما قنعنا به من احتياجـــات، وآلاف الكتـــاتيب تدفع بملايين إلى الحقول لتصنع طعامنـــا ، وتدفـــع ببعـــض مئـــات أو آلاف إلى التعليم الحكومي أو الأزهرى حيث تتكون طبقات مـــن الوعاظ والقضاة والإداريين والفنيين .

والآن أسرت كل هذه الملايين فى قبضة التعليم العام ، ففقـــدت الحرف والحقول كل الملايين المنتجة، والحقيقة أن التعليم العام دفـــع بها وما زال يدفع بها إلى الشارع حيث لا تستطيع أن تطعـــم نفســـها ولا تصنع ثيابها ولا حتى أن تدافع عن نفسها . ومن الغريب ونحـــن على أبواب كارثة محققة في الشراب والطعام والإسكان أننا ما زلنـــا نصر على الأسر من غير تمهين!

ومن الغريب أن أمة هذا حال شبابها تغرق نفســـها فـــي حيـــاة مترفة. فهي تأكل كأسود الغابة، وتشرب كأن أنهار الدنيا تصب فـــي زيرها، وتلبس الحرير والقطن طويل التيلة ، سيكون مـــن الصعـــب عليها تحقيق تنمية حقيقية فيها .

التعليم والتنمية

لقد أصبحت ضرورة ارتباط المنظومة التعليمية بالمنظومة التنموية أمرًا بالغ الأهمية، وهو نقطة الانطلاق في أي عملية للإصلاح .

وللأسف فإننا نفتقد أجهزة الربط بين منظوماتنا المختلفة ، كما نفتقد في تخطيطنا لمنظوماتنا المختلفة إلى منهج علمي متحضر يعتمد على الطريقة النظمية والتي تعتمد بدورها على الفكر الأواب . إن أعظم أداة إصلاحية يستخدمها الدين على مستوى الفرد والجماعة هى منهج الأوابة ، ذلك المنهج الذي يقوم على قياس الواقع مقارنته بما هو مرجو ومحاولة إلغاء هذا الزيغ بين الواقع والمرجو بطريقة مثلى .

وفى هذا السياق لن أتعرض لتصميم المنظومات المختلفة بقدر محاولتي طرح العلاقة بين منظومتي التعليم والتنمية، محاولا أن أصل إلى بعض ما نريد من إصلاح في قضية التعليم .

ولعلنا نلخص طيف التنمية المرجو في ثلاثة عناصر أساسية:

١- تنمية البقاء .

٢- تنمية النماء .

٣- تنمية السبق .

وسوف يستتبع ذلك أيضا طيفا تعليميا فيكون عندنا تعليم للبقاء وتعليم للنماء وتعليم للسبق .

والملاحظة الأولى التي أحب أن أصرف إليها الانتباه هي أن الطاقة البشرية سوف تتوزعها أنواع التنمية بنسب مختلفة؛ فالنسبة الكبرى تعمل في خريطة أعمال تنمية البقاء ثم تليها تنمية النماء ثم تنمية السبق .

تنمية البقاء

ونعنى بها الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية وعزائم الرجال من أجل تحقيق اكتفاء كريم في متطلبات الحياة الأساسية من طعام وشراب وكساء ، واضعين نصب أعيننا طهارة البيئة من حولنا والقصد والاقتصاد في كل شيء.

وفي هذا النوع من التنمية يخطط عالم الأشياء بحيث يحقق العيشة الكريمة، وبحيث يصنع أغلبه إن لم يكن كله بأيدي الناس، مقللين ما استطعنا من الميكنة.

ما طبيعة الأعمال في هذا النوع من التنمية؟ وما طبيعة التعليم الذي يصاحبها؟ للإجابة على ذلك حسب مفهومنا لتنمية البقاء **نضوب**

المثال التالى:

في منطقة زراعية يتوفر فيها الماء والأرض الصالحة يجب أن نرسم خريطة الأعمال المطلوبة لتحقيق تنمية البقاء سواء كانت أعمالا زراعية أو تصنيع منتجات زراعية أو خدمات زراعية أو خدمات عامة أو تربية حيوانية.. وحينئذ نصمم مناهج التعليم بحيث تعطيها بعدا بيئيا يعين الطالب أثناء دراسته على أن يتفاعل مع

بيئته الزراعية تفاعلا مثمرا، وما إن يبلغ الطالب السادسة عشرة حتى يكون قد امتهن مهنة هو قادر عليها. فإن شاء أن يكمل دراسته في نفس ميدانه وكان عليها قادرا ماديا وعلميا فيبقى أن نوفر له الفرص . وإن شاء أن يمضي في الحياة العلمية بضع سنين يجمع فيها خبرة علمية فلا بأس ، ويستطيع أن يعود متى شاء للدراسة وسوف نعينه بمعينات سمعية وبصرية وبالكتب في برامج تشبه الجامعة المفتوحة .

وبالطبع ستكون هناك منح من الدولة للمتفوقين ليكملوا دراساتهم العليا على نفقة الدولة متى شاءوا .

وبذلك يسهم الطالب في خريطة الأعمال الخاصة بتنمية البقاء فترة من حياته تطول أو تقصر حسب استعداده الفطرى وهمته الحضارية بحيث يستطيع بعدها إن كان من المتميزين أن يكون له مكان في خريطة الأعمال الخاصة بتنمية النماء .

تنمية النماء

ويتبنى هذا النوع من التنمية عالم أشياء من النوع السائد في الحضارة المعاصرة وخاصة الضروري منه ؛ وهو ما يتعلق بوسائل الدفاع واستخراج كنوزنا المدفونة وتصنيعها. وما يستتبع ذلك من نظام تعليمى وتدريبى وبحثى ، ويكون من ثمرات هذا الطريق نمو عالم الأشياء نموا سرطانيا قد يضر الإنسان ، ومن ثم فإنه ينبغي تصميم منظومة تنمية النماء بحيث نحاول تلافي ما حدث في الغرب من تلوث فى البيئة.

ورغم أن تنمية النماء إذا أحسن إعدادها قادرة على استيعاب كل أفراد الأمة في العمل فإننا في عالمنا البائس نتوجه إلى استيراد عالم الأشياء دون أن نصنعه فتضيع علينا فرصة العمر في عملية التعليم والتدريب .

والأصل ألا نتبنى عالم أشياء نحن غير قادرين على صناعته.. وكذلك ينبغي ألا نتبنى خدمات يصنعها لنا غيرنا .

ففى تنمية النماء ينبغي أن يكون معدل النمو في عـــالم أشـــيائنا أبطأ من تقدمنا العلمى والتقنى إلا في حالات الضـــرورة القصـــوى والتى ينبغى ألا تزيد عن نسبة ضئيلة تتجه معظمـــها إلـــى قضايـــا الدفاع .

وتستطيع برامج تنمية النماء أن تعمل على تطوير آليات تنميـــة البقاء من خلال البحوث المتقدمـــة التـــي تـــهتم بتطويـــر الوســـائل المستخدمة وإبداع طرائق جديدة لترشيد الطاقـــة وتحســـين الأنـــواع والقضاء على المعوقات والأمراض وكذلك عمليـــات التكـــامل بيـــن الأنشطة المختلفة في تنمية البقاء . فمثلا تستطيع البرامج المتقدمة فى تنمية النماء أن تعمل على تصميم طواحين هوائيـــة مناســـبة لرفـــع المياه وتوليد الكهرباء بحيث يمكـــن تصنيعـــها فـــى ورش صغـــيرة مما يندرج في تنمية البقاء ، كما يمكن استنباط أنـــواع جديـــدة مـــن السلالات يدرب عليها المزارعون . كما يمكن عمـــل بحـــوث عـــن طرائق بسيطة لنصنع الطوب من طفلة متوفرة وتصميم منزل قـــروى مناسب . كما يمكن تطوير الآلات المستخدمة في الزراعة... إلخ.

كل ذلك وغيره لا يمكن القيام به إلا من خلال منظومة عمليـــة بحثية لا يمكن توافرها إلا من خـــلال نـــوع متقـــدم مـــن التنميـــة

وما يستتبع ذلك من عمليات تعليمية وتدريبية تستدعى برامج جديـــدة فى الجامعات سواء في مرحلة البكالوريوس أو الدراسات العليا .

نلخص فنقـــول : إن مهمـــة تنميـــة النمـــاء هـــي التحســـين المستمر لآليات تنمية البقاء بحيث تظل مبقية علـــى طـــهارة البيئـــة والتشغيل الأمثل لطاقات البشر مع العمل على الحد من تخليق عوالـــم أشياء ترفيهية قدر الإمكان ، وكذلك على إنجاز كل متطلبـــات عـــالم الأشياء الخاص بالدفاع .

تنمية السبق

ونعنى بها فى مثل ظروفنا أن علينا أن نختار لأنفسنا بعض الميادين التى نتسابق فيها والتى نستطيع أن ننجز فيها شيئا ، خاصة أنه تربطنا بالشعوب العربية والإسلامية رابطة خاصة تجعل نمونا نموهم وسبقنا سبقهم . ومن ثم يصبح التلاحم قضية مصيرية . فإذا ضاع هذا التلاحم فإن ذلك يعني فشلا ذريعا فى ميدان السياسية ينبغى أن نعمل على إزالته ، فنحن نستطيع أن نسبق فى ميادين ثقافية ، ونستطيع أن نسبق فى ميادين زراعية ، ونستطيع أن نسبق فى ميادين سياحية ، ونستطيع أن نسبق في ميادين تكنولوجية ، والقضية هى أن ننظر إلى الخريطة الكاملة لكل ما نستطيع أن ندخل فيه سباقا ونبدأ تدعيمه ببرامج تعليمية وتدريبية وتقنية .

حول أدوات التنمية:

ونود فى هذا المقام أن نقدم بعض الأفكار الأساسية حول أدوات التنمية والقضاء على مشكلة البطالة بطريقة عملية ، وأهم هذه الوسائل : " المدرسة الشاملة وتقنية التعليم " ونعنى بالمدرسة الشاملة

تلك التى نسمح فيها بقدر من الحرية الدراسية فيما يتعلــــق بــالمواد التقنية وكمّيتها مقارنة بالمواد الإنسانية الأخرى . والإضافات التقنيــة سوف تتلون بالبيئة المحيطة ، ولتحقيق هذه الإضافـــات لا بــد مــن مشروع لتوصيف الحرف والمهارات توصيفا يتناسب مـــع قــدرات الطالب وينمو معه .

فمثلا يمكن توصيف مهارات السباكة لطالب المرحلة الابتدائيــة بحيث تصبح عنده القدرة على إصلاح حنفيات البيـــت ، ثــم نزيــد الجرعة فى المرحلة الإعدادية حيث يصبح قادرا على تركيب ســباكة البيت، ثم نزيد الجرعة في المرحلة الثانوية حيث يصبح هذا الطـــالب قادرا على تركيب شبكات معقدة .

وعملية توصيف الحرف والمهارات البيئية يمكن أن تصاحبـــها صناديق الحرف والهوايات التي إن عجزت الدولـــة عــن توفيرهــا فيمكن للطلبة شراؤها والتدريب عليها فى البيت والمدرسة .

وفى مدرسة ساحلية مثلا يمكن أن تكون الإضافة التقنية متعلقــة بصيد الأسماك وحفظها وتعليبها وفي بناء القــوارب وفـــى صناعــة أدوات الصيد وما تستلزمه الصناعات السمكية .

وتنظيميا يمكن للإدارات التعليمية أن تضطلع بوضع المناهج التقنية في منطقتها بما يتناسب مع بيئتها الخاصة ، ويبقى بعد ذلك البعد الثقافى والحضاري في العملية التعليمية الذى ينبغي أن تقوم عليه وزارة التعليم حتى تضمن وحدة الأمة الثقافية والحضارية ، وذلك من خلال الآتى :

- وضع خريطة لعالم أشياء مطلوب .

- وتأتى جهة ما فى وزارة الصناعة لتقوم بترجمة هذه الخريطة إلى مجموعة من المشاريع توزع على أساتذة الجامعات والعاملين فى مراكز البحوث الصناعية (غير الموجودة الآن) .

- ترتبط بهذه المشروعات مجموعات مختلفة تعمل على تطويرها وتشرك طلابها معها في المناهج والمشاريع والوسائل .

- من أجل ذلك يجب العمل على تقنية التعليم بحيث يزاد الجزء التقنى ، ثم يليه الجزء التصميمي، ثم يليه الجزء التحليلى بنسب مناسبة لأوضاعنا الخاصة في هذه المرحلة.

فمثلا "مطلوب مصاعد كهربائية"، ولكن دورنا الآن في هذه المصانع لا يتعدى صنع الكبائن وكل شيء آخر مستورد. تصوروا كمية البحوث والمشاريع وما يتفرع عنها من أعمال للمهندسين والفنيين والعمال .

إننا سنضرب الرقم الذي يعمل الآن على الأقل في عشرة والأمر ليس صعبا، لقد قمت بتجربة في قسم هندسة الطيران وصنعنا جهازاً للتحكم فى المصاعد تكلف ٣٠٠ جنيه مصرى ، بينما يتكلف مثيله من ٧ آلاف جنيه إلى ١٠ آلاف جنيه.

ما الذي يمنع أن نفعل ذلك في كل شيء؟ أعتقد أن هناك غياباً كاملا للمنظومة البشرية التي تسيطر على صنع القرار من أول الاختيار لعالم الأشياء مروراً بترجمته إلى مجموعة من المشاريع العلمية والتطويرية وانتهاء بعمليات التصنيع المختلفة .

وتسأل : أين في دولتنا مثل هذه المنظومة؟ فلا تجد لها أثراً.. وإلا فما الذي ينقصنا لنتوزع فيما بيننا الأعمال العلمية والتطويرية والتصنيعية لصنع غسالة متفوقة؟ وما الذي ينقصنا لنفعل نفس الشيء في كل مفردات عالم أشيائنا المرجو ابتداء من قلم نكتب به إلى صاروخ ندفع به الأذى عن أنفسنا ؟

إن برامج التعليم فى جامعاتنا جيدة بكل المقاييس ، ولا ينقصنا إلا أن نعيد النظر في النسب المثلى بين البعد التقني والبعد التصميمي والبعد التحليلى.

وهى لن تفعل ذلك إلا إذا ارتبط أساتذتها بمشاريع قومية هادفة تحددها جهة حاكمة لعالم أشيائنا كما أسلفت . حينئذ سنجد الجامعات خلايا نحل : أساتذة وطلاباً وباحثين .

ويكمل الحلقة فى الجامعة أن نطور نظام الترقيات لأساتذتنا، ونجعل إنجاز البحوث المتطورة في إطار المشاريع القومية أمرا ضروريا للترقيات ولا يتم بدونه.

ويكمل هذه الحلقة أيضًا نظام جديد للابتعاث نبتعث فيه الحاصلين على الدكتوراة من الجامعات المصرية لمدد قصيرة يتقصون فيها التقدم التقني والعلمي في ميادينهم من غير تضييع للوقت في مناهج وامتحانات نحن عليها قادرون.

إن الوضع الحالي في مصانعنا مؤسف للغاية؛ فهي مصانع مجهزة تماما من الخارج، وليست فيها أجهزة تطوير إلا قليلا.. قليلا جدا . ولإصلاح هذا الوضع فإننا نقترح الآتي انطلاقا من مفهومنا لتنمية النماء:

١- وضع خريطة لعالم الأشياء المرتبط بتنمية النماء .

٢- ترجمة هذه الخريطة لمجموعات من المكونات الأساسية .

٣- صياغة مجموعة من المشاريع وتوزيعها على الجامعات ومراكز البحوث الصناعية إن وجدت لتطوير هذه المكونات فى نموذج هندسى .

٤- عمل مشاريع أخرى لتحويل النماذج الهندسية إلى نماذج صناعية .

٥- الاتصال بالمصانع التي تستورد هذه المكونات لمنع الاستيراد، واستخدام النموذج الجديد بعد تصنيعه.

٦- عمل نظام فعال لمتابعة نجاح المنتج الجديد، وتجميع كل المعلومات عن مدى تحقيقه للغرض الذي صنع من أجله.

٧- متابعة التقدم العالمي في مثل هذا المنتج والاستفادة منه عن طريق إعادة الطرح في مشاريع جديدة من أجل التطوير إلى الأفضل .

فإذا آمنا بأهمية إنشاء هذه المنظومة لتعمل في مجالات الهندسة ، فلا مانع أن تتكون منظومات أخرى تقوم على نفس الأهداف فى مجالات أخرى، مع التحذير الشديد بعدم خلط هذه المنظومات بعضها مع بعض . ذلك أن طبيعة مشاريع الحشرات والآفات وما يستتبع ذلك من بحوث ومشاريع تختلف اختلافا جذريا عن طبيعة المشاريع الهندسية، ولعل ذلك يكمن وراء عدم فاعلية أكاديمية البحث العلمى فى حياتنا الصناعية .

لقد ناديت مرارا وتكرارا بحقيقية غائبة عن تخطيطنا التعليمى ، وهى أن العلم والتكنولوجيا كائنان متمايزان وغير متطابقين .

صحيح أن التكنولوجيا المتقدمة تحتاج إلى مناخ علمى متقدم ، ولكن يظل تعليم التكنولوجيا متمايزا عن تعليم العلوم . ومن ثم فإن الاعتراف بهذه الحقيقة المهمة سوف يدفعنا ـ إن أردنا أن نتقدم ـ أن نمايز بين العنصر التقنى فى التعليم والعنصر التحليلى والتصميمى .

ومن أجل ذلك ينبغي أن يعاد تصميم المناهج فى كليات الهندسة بحيث يدخل العنصر التقنى ومن ورائه العنصر التصميمى ومن خلفهما العنصر التحليلي في نسب مدروسة من شأنها أن تربط الجامعة بالصناعة وتنتهى بخريج قادر على العطاء الصناعى .

والآن ما هو دور نقابة مهنية مثل نقابة المهندسين في إطار المنظومة التي اقترحناها فيما سلف ؟

إن دور النقابة يمكن أن نوجزه في الأمرين التاليين:

١ – تنظيم عمليات تقنية التعليم الهندسى فيما قبل الجامعة.. فهذه مهمة تقنية ينبغى أن يفرغ لها تقنيون .. صحيح أننا نحتاج إلى تربويين وعلميين للتفاعل معنا فى هذا الأمر ، ولكن الأصل هم التقنيون .

٢- إنشاء هيئة لدراسة خريطة عالم الأشياء المرجو والإشراف على المهام السبعة التي لخصناها من قبل فى هذا الموضوع .

وبعد .. فإن مشكلة البطالة فى مصر هى فى الحقيقة مشكلة غياب الفلسفة والمناهج للتنمية الراشدة ، سواء كانت تنمية البقاء أو تنمية النماء أو تنمية السبق . ومن ثم فنحن نتبنى عالم أشياء لم نخطط لصنعه ولم نتعلم لبنائه . إنها بصراحة غياب دور العقل ــ أى دور الدولة ــ والذي لخصناه مؤقتًا فى منظومة مقترحة رأينا أن تتعاون من أجل قيامها النقابة ووزارة الصناعة .

وأقول فى النهاية وعن تجربة : إن مشروعا واحدا مما نعطيه للأجانب فى ميادين الصناعات المختلفة يكفي كل علماء مصر ومهندسيهم وفوقهم مئات الألوف من العلماء والمهندسين العرب والمسلمين ولا يكادون يلاحقون العمل فيه .

محتويات الكتاب